حوار المتخمين والفقراء الجدد

الحياة - غسان سلامة ٥/١٧/٨٨

■ من الصدف ما يثير التفكير. هل كان علينا ان ننتقل الى هذه المدينة الصغيرة في الجنوب الايطالي لنبحث في اي حوار نريد مع اوروبا؟ فالحوار الذي عرفته هذه المنطقة الفقيرة من ايطاليا معنا عبر التاريخ لم يكن حبيباً ولا مسالماً. غزوناها وغزتنا، وقبلها بقرون، تقول الاسطورة المحلية، غامر ٦٢ بحاراً من المدينة باروا حهم للذهاب الى دار الاسلام والعودة منها منتصرين برفات القديس نقولا، المعروض في كاتدرائية المدينة الجميلة جداً على بساطتها المعبرة عن قسوة المراحل الاولى من القرون الوسطى. وباري كانت قبل ذلك بقرون اخرى، محطة مهمة امام الآف اليهود الهاربين من فلسطين بعد تهديم الهيكل في القدس. وباري كانت مدينة محصنة في وجه المسلمين المنطلقين من موانىء شمال افريقيا. وفي زمن اقرب الينا بكثير، كانت باري المدينة التي بنى فيها موسوليني اذاعته باللغة العربية خلال الحرب العالمية الثانية، وحاول من خلال موجاتها ان يستميل الى جانب قوى المحور، جماهير عربية واسعة كانت تناصبه العداء لافعاله الشنيعة في مسلمي ليبيا واريتريا. اما اليوم فباري مدينة صناعية تقيم سنوياً معرضاً تجارياً للشرق، فيها جامعة نشطة، وعندها طموح الاطلال على العالم. ومن هنا استقبالها هذا اللقاء الرابع بين المفكرين العرب والاوروبيين المهتمين بحوار هاتين المساحتين الحضاريتين.

ولا ريب في ان الهبوط المتزايد في اسعار النفط اثر ويؤثر مباشرة على حماسة الاوروبيين لهذا الحوار، كما بدا جلياً بالمقارنة مع اللقاءات السابقة، ولا سيما منها لقاء السنة الماضية الذي كانت عمان قد استضافته. فكلما هبط سعر البرميل، هبط معه الخوف من ازمة نفطية كبيرة او من اسعار نفطية عالية، وكلما هبط سعر البرميل، قل الاهتمام الاوروبي باسواق تتقلص بسرعة مع تقلص عائدات البلدان المصدرة للنفط ولم تنفع في هذا السياق كثيرا تحذيرات يوسف صايغ وتخوفات مدير الشركة الايطالية للنفط من ان نظام السوق يجب الا يتحكم وحده بهذه السلعة الاستراتيجية، فالخوف من انقطاع العرض، ومن ارتفاع الاسعار تلاشى تماماً، وتلاشت معه الحماسة للقائنا.

وشاءت المصادفات ان ياتي لقاء هذه السنة في تاريخ وسط بين انتخابات اسرائيل وانتخابات الولايات المتحدة الاولى حملت العرب والاوروبيين على التشاؤم بحل سلمي للنزاع العربي - الاسرائيلي، وهي حررت محاورينا من مشقة التفكير العميق في دورهم. فاذا كان الناخب الاسرائيلي يفضل شامير على بيريز، فاوروبا غير قادرة على اي عمل يذكر، فهي تجد في نفسها القدرة على تشجيع الحوار، لا على إطلاقه. اما انتخابات اميركا، فحررت الاوروبيين من اي وهم حول قيادتهم العالم، فخارج ثنائية اللقاء، وجدناهم يحددون موقعهم في مكان وسطي بيننا وبين الولايات المتحدة، لكن هذا المكان تغير عبر السنوات بحيث بدا لنا في باري ان الاوروبيين، في معظمهم، يعتقدون ان المحيط الاطلسي اضيق بكثير من البحر المتوسط، وبالتالي ان الولايات المتحدة اقرب الى جنوب ايطاليا منها الى الشاطىء التونسي او الليبي.

اما صورتهم عنا فقد تبدلت ايضا بعض الشيء. لم يعد التخوف من «التطرف الديني» و«الارهاب» هو الذي يحكم ردود الفعل، بل بدا نوع من الاستكانة الى فكرة ان «الاعتدال» هو سيد الموقف على الساحة العربية. لكنهم تاسفوا لكون الزعامات المعتدلة ديبلوماسيا غير متحمسة في الاجمال لتحقيق مزيد من الديمقراطية. وكان لا بد من ان يثير هذا الهجوم الناعم على المواقع العربية نوعا من الحوار الساخن داخل المجموعة العربية الموجودة. فالرسميون (او الطامحون الى موقع رسمي عربي) راوا ان العرب في خير وانه ينبغي على الاوروبيين عدم التدخل في شؤوننا الداخلية، من حقوق انسان وممارسات ديمقراطية. وهم راوا ايضا ان موقفنا واضح تماما من قضية فلسطين، وهو اجماع زعمائنا الجميل على مقررات فاس. لكن غير الرسميين كان لهم موقف اكثر وضوحاً فانتقدوا ضعف تاييد انتفاضة الحجارة عند العرب والاوروبيين على السواء، ودعوا الحكومات الاوروبية الى الدفاع عن حقوق الانسان العربي، ولو ضد انظمته السياسية. وبتفكك عرى الموقف الموحد (ولو بنعومة)، وبدا ان الحوار اصبح ثلاثياً بين الاوروبيين والعرب الرسميين والعرب غير الرسميين، لكن «اللياقات» سمحت بتغطية هذا الانتقال الضمني من الثنائية الى الثلاثية.

هذا لا يعني انه ليس من تناقضات في الموقف الاوروبي نفسه، لكننا أعدمنا في باري وسائل ابرازها الى العلن، بلا نفط ولا سوق ولا افكار جديدة حقاً، فراح الاوروبيون، المرتاحون في موقفهم، يذكروننا بالجدل الصاخب الذي جمع كلا من هنري كيسنجر وهانس ديتريش غينشر، غداة حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣، حين كان الاول يلوي ذراع الثاني لثنيه عن التحاور معنا، لتخوفه من ان يصل الاوروبيون الى قناعة اخرى عن تواصلنا التاريخي واتصالهم بالاميركان. وبعد ساعات من الصخب، على ما يبدو، استطاع غينشر، بما اوتي من حجج ان يجعل كيسينجر يعترف بان الحوار بين الاوروبيين والعرب غير مضر، ولو انه بقي مقتنعا بانه ليس بالمفيد.

ونحن نغادر باري، شعرنا جميعا بان «العزيز هنري»، مرة اخرى كان مصيبا. لم الحوار فعلا ان كانت اذهانهم في واشنطن وكانت ايدينا عارية من اي وسيلة ضغط «حضارية»؟ اللهم ان استفاقوا يوما على صوت اسعار البرميل ترتفع مجددا، او على صوت مدفع يقض مضاجعهم في حرب تنشب، في تخومهم، بيننا وبين بعض اعدائنا ممن يحبون، او ربما على صوت مؤذن يدعو الى الصلاة ملايين المسلمين الذين استقروا في اوروبا من دون رغبة او قدرة على العودة الى جنوب المتوسط قد يعودون يومذاك ورغبتهم اوضح في الحوار وفي اسكات صوت كيسينجر المبحوح.

باري - ايطاليا